بين المنظور الوطني والمنظور الطائفي الدكتاتوري:

مأزق «المقاومة العراقية» ومستقبلها

عبدالاميرالركابي*

■ نشأت المقاومة العراقية عفويا، وكرد فعل طبيعي على الغزو واثاره، لم تضطلع اية قوة وطنية بتفجير هذه الظاهرة، وتصادف ظهورها مع غياب الحركة الوطنية العراقية، وقبل توفر ارهاصاتها ـ ان وجدت ـ على الشروط المؤهلة لها، كي تقود العمل المقاوم، او تضطلع بالتخطيط له، او تنظيمه، والقوى التي ساهمت في العمل المقاوم، بناء عليه، كانت تلك التي هي بموقع الاصطدام الموضوعي، واحيانا الاجباري، مع الامريكيين، من هذه، بقايا النظام، وقوى عسكرية من ضباط ومراتب الجيش، ثم ظهر دور القوى الاسلامية وبعض الوطنيين، هذا اذا تحدثنا عن واقع المقاومة على الارض، اما على المستوى الاعلامي والسياسي، فلقد اتخذت شخصيات وقوى مختلفة، مواقف مساندة للعمل المقاوم، وهذه ايضا، تصرفت بما تملكه من وعي، ومن امكانات، ومن قدرة على التفكير والرؤية، ولم يخل الامر حتى من الاستجابة لبعض المصالح الصغيرة والاصفافات المعتادة.

كل هذه القوى وياللاسف، لم تكن في وضع يؤهلها لجعل المقاومة متطابقة مع التحديات والاهداف الوطنية، واغلبها ظل يركز على جانب واحد، هو اخراج المحتلين من العراق، اي تكبيدهم هزيمة عسكريه جلية، ومن هذا المنطلق، ساد التركيز على الجانب «العسكري» من العمل المقاوم، بعض هذه القوى، كانت تعتقد جازمة، ان اهداف المقاومة، يمكن ان تنحصر في اعادة النظام السابق، بعد دحر الاحتلال، وقوى اخرى تصورت ان المقاومة المسلحة، سوف تكون هي مشروع السلطة القادمة في العراق، ورفع هؤلاء معا شعار «المقاومة هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب العراقي» في حين دخلت على المقاومة ايضا، قوى من خارج العراق، لها اجندات واستهدافات اخرى، لا تتطابق اطلاقا مع متطلبات وتفاصيل الواقع العراقي.

بالمقابل كان هنالك تيار ظهر مبكرا، واعلن على اوسع نطاق، موقفا يربط بين «المقاومة المسلحة»، والمشروع الوطني الشامل، ويرهن مستقبل العمل التحرري بالتئام الوجهتين، لقد رفع هذا التيار منذ الايام الاولى للاحتلال، شعار «المؤتمر التاسيسي الوطني العام» ونادى بضرورة اعتماده لارساء «آلية وطنية» تتطابق مع خاصيات العراق التاريخية، وتمثل صورة عراق المستقبل «التوافقي الديمقراطي» كان هذا التياروما يزال مع المقاومة، والشواهد والوقائع التاريخية الثابتة تقول، بانه كان اول من اعلن عنها، وساندها، وواكب مسيرتها، غير انه كان ايضا، وما يزال، يتمسك بوجهة نظره عنها، وعن آفاقها، وقد بادرمن جهته الى بلورة موقفه الوطني في تصور محدد، انطلق من القول بان مسالة تحقيق الانتصار على الاحتلال، غير ممكن بالوسائل العسكرية البحتة، وان شرط الانتصارالوطني، مرهون بمدى قدرة المقاومة على ان تبلورتصور سياسي، على المستوى الوطني، وهذا الطريق هو الذي يجنب المقاومة، مسارات تضر بعملها، ويمكن ان تؤدي لعزلها، مما يسهل على الاحتلال واعوانه، اغراقها في متاهات الصراع الطائفي وغيره...

لقد نشأت المقاومة محكومة بدوافع، ليس هنا مجال الغوص فيها بالتفصيل، وانحصر نشاطها داخل منطقة محددة من العراق، وهذه نقطة يجب اخذها بالاعتبار، لانها كان يمكن ان تكون نقطة قوة للمقاومة (على الاقل من الناحية العسكرية) كما انها قابلة للتحول الى نقطة ضعف ومقتل، وكان رأي اصحاب المنظور الوطني التحرري الشامل، ان اعتماد شعارات «الممثل الشرعي والوحيد» او المطالبة باعادة النظام المنهار، تساهم في اعطاء العدو واعوانه، الاسلحة التي يحتاجونها، كي يحصروا المقاومة داخل نطاق ضيق، يمنعها من ان تتحول الى حركة وطنية شاملة، متطابقة من حيث الرؤية والاهداف، مع مقتضيات اللحظة التاريخية وطنيا، وتحديدا مع ضرورات قيادة العمل الوطني التحرري.

وكان من المهم ان يلفت النظر مبكرا الى ان للاحتلال ركيزتان وقدمان يسير عليهما:

ـ القوة العسكرية، اي القوات الامريكية المحتلة والتي تمارس البطش والقتل.

ـ و«العملية السياسية».

بالمقابل لا يملك الشعب العراقي، حتى الان، غير ركيزة واحدة يخوض بها صراعه مع المحتل، هي «المقاومة المسلحة»، والبعض صب كل جهوده على هذه الركيزة، واعتقد انها يمكن لها لوحدها ان تحقق الانتصار، وبعضهم ما زالوا يتحدثون عن قرب الانتصار النهائي وفقا لهذا المنحى، ولاشك ان الاحتلال يعاني اليوم من مازق عسكري، الا انه يسير بعمليته السياسية قدما، وتمكن من تحقيق انجازات على هذا الصعيد، في حين ماتزال المقاومة الباسلة، تمارس العمل المسلح لوحده، ولم يجر الانتباه بعد، الى امكانية اخرى هامة وحاسمة، فلوحة الصراع، ينقصها عنصر هام وحاسم، هو «العملية السياسية الوطنية» لقد تمت المناداة، منذ الايام الاولى للاحتلال، بضرورة السعي لاقامة «المؤتمر العام الوطني التاسيسي العراقي»، وقيل بان الدولة انهارت بفعل الغزو، كما بفعل طبيعة النظام، وان اعادة بناء العراق اليوم، يجب ان تتم عن طريق التقاء مكونات المجتمع العراقي كافة، بعيدا تماما عن الاحتلال وعن تدخلاته، وان يكون هذا اللقاء، هو الاساس لصياغة الدستور المتوافق عليه، بحرية تامة، اي بشرط عدم تدخل الاحتلال في مساراته وقرار انعقاده واياته، وبما يحقق مصالح وحرية العراقيين كافة، بهذا تصبح المقاومة مكتملة الافق، وتمثل مشروعا وطنيا متكاملا يصلها بعراق المستقبل، ويجعلها صانعة له، هذا الخيار يستوجب توضيحات تتعلق بالخيارات التاريخية التي تخيم على واقع ومستقبل العراق اليوم:

فالعراق تتنازعه ثلاثة خيارات:

ـ خيار «الدولة الاحادية» وهو الذي عرفه العراق بين عام 1920 و2003، وهو ماسمي بخيار «الدولة الحديثة» ـ الزائفة ـ وهذا الخيار لم يحقق الاستقرار، ولم يكن متناسبا مع تكوين البلاد وخصائصها، وقام على القسر، وعلى غلبة فئات من المجتمع، على فئات اخرى، واخيرا فهو كان عامل توتر وصراع مستمر، الى ان تسبب في ازمة اجتماعية، وسياسية حادة، ووصلت حالة القمع واللااستقرار، وتفاقم الظواهر الفئوية والطائفية في ظله، الى اقصى الدرجات.

ـ الخيار الذي يعتمده الاحتلال الامريكي الان، ويقوم على «المحاصصة الطائفية» وهو يعتبرالطائفية والفئوية صالحة لان تصبح اساسا لبناء نظام يسميه بالـ«ديمقراطي»، الا ان هذا الخيار مستحيل، وهو لايتفق اطلاقا مع طبيعة البلاد وتاريخها، صحيح ان مظاهر التوتر بين الفئات والمكونات العراقية تصاعدت، بفعل سيادة نظام قسري غير متلائم مع طبيعة البلاد وخصائصها التاريخية على مدى 28 سنة، وبالاخص خلال الحقبة الاخيرة الشمولية الاحادية منه، الا ان الطائفية المتاججة اليوم، لاتتفق رغم ذلك مع ضرورات سير العملية الوطنية، لا بل وتتعارض معها كليا، والمدقق في الوقائع والتاريخ العراقي، لايفوته التيقن من ان الطائفية في العراق، هي ظاهرة اجتماعية ثانوية لا بل عرضية وليست اساسية، وان وضعها في الموضع الحاسم والسائد سياسيا، يؤدي حكما الى خلل خطير، ويفضي الى توترات، بدأ حتى الاحتلال نفسه يعاني من وطأتها، وباشر مؤخرا البحث عن سبل للخلاص منها.

ـ الخيار الثالث، هو الخيار «الديمقراطي التوافقي» ان المجتمع العراقي هو بلا شك مجتمع تعددي وهذه اكثر صفاته اصالة وعمقا، وفيه طوائف وقبائل وعقائد كثيرة، الا ان تعدديته تلك، تمتلك في داخلها سروحدتها، والنظام الملائم للعراق، والمتطابق مح تكوينه وخاصياته، هو ذلك الذي يلبي شرطي «التعدد والوحدة» معا، قد يبدو هذا الخيار صعبا ومعقدا، وهذا صحيح، الا ان مسالة الدولة في العراق كانت دائما، وعلى مر التاريخ، من القضايا المركبة والدقيقة، غير ان هذا هو الخيار الذي يتفق وصيرورة العراق، وطبيعته، ويلبي مطامح ابنائه، ويجعله حيا وقادرا على الابداع، كما كان في حقب ومراحل هامة ومشهودة من تاريخه الطويل.

هذا الخيار الاخير، ليست له آلية مطابقة، وتؤمن تحقيقه الان او في المستقبل المنظور، غير الشعارالمتمثل في «المؤتمر الوطني العام التاسيسي»، فوفق هذا السبيل فقط، يمكن وضع مضمون هذا الخيارموضع التنفيذ، وهو اليوم المشروع الاكمل، والممكن الوحيد، المضاد لمشروع الاحتلال، كما يتمثل في العملية السياسية «الطائفية» والاحتلال العسكري المباشر، وهو طبعا النقيض التام لمشاريع بعث الدولة الاحادية، التي غدت من الماضي، وانتهت من سجل التاريخ والحياة، لهذا واجه الخيار المذكور اشد واشنع اشكال الهجوم من قبل المنتمين الى الرؤيتين والخيارين الميتين، والباقيين في التداول بحكم ظروف انتقالية وطارئة، مثل جثث تسير على قدمين، وهو امر لطالما كان يحدث في التاريخ، ففي قضايا المجتمع، وعالم الافكار، لا تجري المبادرة فورا لدفن الموتى واهالة التراب عليهم، وحكمة «اكرام الميت دفنه»، لاوجود لها في هذا المجال من مجالات الحياة، ان لم يحدث في الغالب العكس، وكثيرا ما يصر اهل الموتى هنا، على التمسك بالجثث، وولا يتوقفون عن محاولة احيائها حتى بعد ان تتعفن.

البعض يقولون، دعونا نؤجل هذه المهمة اي «المؤتمرالوطني العام التاسيسي العراقي» الى ما بعد التحرير، وردنا على هؤلاء محدد، لا تحريرمن دون مشروع ورؤية وطنية متكاملة وشاملة، وما يعتمد بهذا الخصوص كشعار، منذ الغزو، ليس قضية ملحة، او ثانوية، او مجرد اقتراح يمكن الاستغناء عنه، او تاخيره، بل هو شرط لازم لعملية المقاومة، والمقاومة لن تحقق اهدافها ابدا من دونه، وسيأتي يوم وتدخل هذه مأزقا تضطر معه الى مراجعة موقفها، اذا هي لم تاخذه او لم تتمكن من اخذه بالاعتبار.

لايتعارض شعار «المؤتمر العام الوطني التاسيسي» مع عمل المقاومة، ولامع استمرارها واستقلاليتها، وهو شعار موضوع تحت تصرفها ولزيادة فعاليتها وفتح الافاق الوطنية بوجهها، ويأمل اصحابه، بان يأتي اليوم الذي تصل فيه قواها، الى الاقتناع بهذا الشعار، وتتبناه هي، وتنفذه، بعد ان تخلع عنها شعارات من نوع «الممثل الشرعي والوحيد للشعب»، ان افضل ما تفعله «المقاومة العراقية» هو رفع شعار «مؤتمر الشعب العراقي بكل مكوناته وبعيدا عن الاحتلال واعوانه هو الممثل الشرعي للعراق»، لقد قامت قوة معدومة الامكانات على جميع الصعد، وتفتقر الى التاييد والاسناد من الجميع، وما تزال، ببذل كل ما بمقدورها، حتى تحول هذا الشعار، بأي قدر كان، الى حقيقة، والى واقع يمثل تطلعات المقاومة العراقية، باعتبارها جزءا من تطلعات الشعب العراقي وخياره التاريخي الوطني والديمقراطي، وقد اعتمدت مؤتمرات تحضيرية عقدت في هذا السياق شعار «تعدد الخيارات ووحدة الهدف» وكان الامل معقودا، على لحظة تتخلص فيها المقاومة، وكل القوى الوطنية الجديدة الصاعدة، من ربقة مفاهيم وتصورات ضيقة وبالية، ولا تنسجم مع الاهداف الوطنية، مفاهيم عطلت حتى الان امكانية تحول المقاومة الى مقاومة وطنية شاملة، لاتنحصر مهمتها في القتال وحسب، بل تخترق كل قوى ومكونات وقطاعات المجتمع، وتجتذبها، وهذا يتطلب تصورا مطابقا للمشروع الوطني، فالمشروع الواضح لعراق اليوم وللمستقبل، ومهمة بلورته واقتراح الياته، يساوي، لا بل هو يتفوق تماما، على العمل العسكري المباشر، على اهميته القصوى، وهذه خاصية، سوف يقول التاريخ بانها كانت ملازمه لتجربة العراق التحررية الراهنة، وكانت من مبتكراتها التي توصلت اليها، وتبنتها عبر محطات انتقالية قاسية، شهدت صراعات مع بقايا ومخلفات الدكتاتورية بعد سقوط الدكتاتورية، كما مع اشكال من المرض والاحتقان الطائفي المدعوم من الاحتلال، قبل ان تتمكن من شق طريقها الصعب، وتتحول الى حقيقة معاشة.

اليوم تعاني «المقاومة المسلحة» من مأزق غير معلن، ها نحن نفصح عنه، متحملين مرة اخرى واخرى النتائج المعلومة والمترتبات المعتادة، الاحتلال طبعا يعاني من ازمة كبرى وشاملة، ومشروع واليات «العملية السياسية الامريكية» القائمة على المحاصصة الطائفية تمر بمأزق خانق، ووصلت الى طريق مسدود، بدأ يفضي للتفكير بسيناريوهات غريبة، منها مايقال عن «اعادة احتلال بغداد» بعد تشكيل الحكومة الحالية بفترة ليست بعيدة، اي تصفية جيوب المقاومة في الاحياء المتمردة بوسائل او خيارات اشير الى انها تذكرب«خيارالفلوجة» اي استخدام الاسلحة المحرمة، والمقصود على الارجح هي احياء الاعظمية والدورة والعامرية والخضراء والصدر، وهنالك حديث ايضا عن «انقلاب عسكري» قد يعقب تلك العملية، وقد تم الاتصال بجنرالات لدينا اسماءهم، ويقال ان سيناريو انقلاب على العملية السياسية، والحكومة، واعتقالات لقادة القوى التي تحالفت حتى الان مع الاحتلال، واعضاء الحكومة الحالية، هو من اهم مهمات الانقلابيين، وبالتوازي مع مثل تلك التوجهات، لا يتوقف الرئيس الامريكي عن استنفار النخبة البيروقراطية الامريكية في ما يشبه حشد «وحدة وطنية» يشمل الجمهوريين والديمقراطيين معا، وبالذات اقطابهم من المشهود لهم بالخبرة والحنكة، وقد كلف السيد جيمس بيكر بتشكيل لجنة «لدراسة العراق» واللقاءات بالدبلوماسيين، واصحاب الخبرة، والمشتغلين سابقا في المنطقة، والكتاب والباحثين تذكر على شاشات التلفلزيون علنا، واخيرا اطلق السيد كيسنجر كما نعلم، نداء الى تشكيل «لجنة اتصال دولي حول العراق»، ولايمكن ان يجري كل هذا فقط بسبب موضوع انتخابات الكونغرس النصفية في الشهر الحادي عشر من العام الحالي، والخوف من هزيمة الحزب الجمهوري في الانتخابات المذكورة، لايبررلوحدة استفارا للوحدة الوطنية يتخذ طابع «نداء الطوارىء الوطني»، تطلقه الادارة الامريكية والرئيس بوش، ضمن افق استراتيجي يعيدنا مرة اخرى، الى التساؤل المستمر حول ترابط المشروع الامبراطوري الامريكي، مع مهمة الولايات المتحدة في العراق والمنطقة.

في هذه اللحظة بالذات، تتجمد «المقاومة العراقية» وتتراجع عملياتها، ويداخل تحركها الارتباك، لسبب بسيط ناجم عن التعارض بين تقدم قدراتها العسكرية، بمقابل ضيق افقها ومشروعها الوطني، ولم يكن الوصول الى هذه النقطة الفاصلة غير متوقع، فالشعارات التي تضع العمل المقاوم في خدمة المشروع البعثي الصدامي القائل «باعادة الامور الى ماكانت عليه قبل 2003/4/9»، والاصرار على شرعية «صدام حسين كرئيس للعراق» او التمسك بالشعار الآخر القائل «المقاومة هي «الممثل الشرعي الوحيد للشعب العراقي» تعني كلها، وضع سور صيني مسبق، بين المقاومة وبين الغالبية العظمى من الشعب العراقي، ناهيك عن انها تساعد الطائفيين والعنصريين الانفصاليين، من الاطراف الاخرى، ومعهم الاحتلال، على تحشيد قوى المجتمع في مناطقها، لدرجة تحصينها ضد المقاومة ومشروعها وما تمثله، ومن المؤسف ان تكون مثل هذه الطروحات، وبفعل اسباب سبق وذكرنا جوانب منها، قد تمكنت حتى هذه الساعة من التوغل في صفوف المقاومة، وسيطرت على توجهها، لتسجل بذلك حقبة انتقالية اجبارية، سترد مذكورة في التاريخ باعتبارها صحوة موت الماضي المقبور على الجهتين، فالعراق حتى الان، وعلى مدى السنوات الثلاث المنصرمة منذ الغزو، لم يعرف بزوغ مشروع المستقبل، وان وجد فانه كان الاضعف والمستهدف، والذي تضافر الجميع على قتله اوالتخلي عنه، والهرب من تبعات تبنيه.

بادرت قوى اساسية من «المقاومة» مؤخرا، فاعلنت براءتها من «البعث»، فعل ذلك «الجيش الاسلامي» العمود الفقري للعمل المقاوم المسلح، و«كتائب ثورة العشرين»، وهذه بداية، تنم عن تحسس اولى غير كاف، فابراهيم الشمري ممثل «الجيش الاسلامي» الذي ظهر على ـ قناة الجزيرة ـ قبل فتره، تبنى مفهوما ساذجا عن قضية «الممثل الشرعي الوحيد للشعب العراقي»، غير ان الاهم هو انه لا احد في صفوف المقاومين اليوم، يجازف بمواصلة العمل المسلح بهدف اخراج المحتلين باسرع ما يمكن، والكل اصبح على قناعة بان خروج الاحتلال، يعني الحرب الاهلية، ومع ان هذا الاستنتاج جاء متاخرا، ولااحد يعترف به علنا، الا انه قائم على حقائق ومخاوف لاتقبل الدحض، فالقوى والاطراف الاخرى (الطائفية والعنصرية) سوف تستغل الفرصة لتصبح هي «الحاكم الوحيد» للعراق، وهي تملك الى حد بعيد، ان تفعل ذلك، لانها تملك الظهير، وليست لها دبابات تضرب على حواف الطرقات، وليست قوى غريبة. ولهذا كله معنى واحد: المقاومة بالافق السياسي الذي حكمها حتى الان وصلت هي الاخرى الى طريق مسدود.

لايعني ذلك ان الاحتلال انتصر، ولا ان المقاومة اندحرت، بل يعني ببساطة ان العمل الوطني التحرري والمقاوم، بدا ينتقل نحو حقبة اخرى، ومن المهم ان ننظر اليوم الى تطورات الوضع في الفرات الاوسط وجنوب العراق، فتصاعد العمل المسلح هناك مؤشر هام ونوعي، سيساعد على لفت انتباه المقاومين الوطنيين في المناطق الرائدة في شمال غرب العراق، الى استحالة التحرير وفق مفهوم الوطنية القديم البالي، ففي العراق اليوم تجربة تقول، بان المطلوب واللازم والذي لايمكن ابدا الفصل بين مكوناته، هو تحرير مشروط بمشروع وطني محدد وواضح يجتذب العراقيين كلهم، ويجعلهم ينخرطون في مهمة التحرير، مشروع مستمد من الغد الديمقراطي التوافقي المقترن بشرطي التعددية والوحدة الوطنية، لامن الماضي الدكتاتوري او الطائفي..

ومشروع كهذا له اليات عمل محددة ومسارات كلها توقظ حس تعلم روح الابداع التاريخي روح المستقبل، وهنا يكمن الدرس العراقي الكبير...

* كاتب من العراق يقيم في باريس

«اللوبي الإسرائيلي» في الولايات المتحدة: يد الشريك الأصغر أعلى من الأكبر؟

د. أسعد عبد الرحمن*

■ في شأن الصراع العربي/الصهيوني، معلوم أن المواضيع الأساسية التي تخضع لكثير من النقاش، بل الجدل الساخن، عديدة. وبعض هذه المواضيع طال النقاش/الجدل حولها بحيث بدت وكأنها إما «قتلت بحثا» أو بات بحثها أمرا عقيما!! وفي صدر هذه المواضيع، مسألة «اللوبي الصهيوني/الإسرائيلي في الولايات المتحدة». وحقا، فإن المفكرين والباحثين والسياسيين، إضافة إلى قطاع عريض من الجمهور، أدلوا بدلائهم على امتداد السنوات الماضية دون التوصل إلى جواب شاف بخصوص تلك المسألة. وفي هذا السياق، توزعت الخلاصات في تيارات فكرية/سياسية ثلاث: أولها، يقول بأن دور ذلك «اللوبي» تعرض لكثير من «التهويل» بحيث وضع في موضع متقدم على دور الإدارات الأمريكية المتعاقبة وكأن «اللوبي» هو «الكلب» والإدارات الأمريكية الحاكمة هي بمثابة «الذنب». وثانيها، يقول بأن دور ذلك «اللوبي» تعرض لكثير من «التهوين» بحيث جرى وضعه وتهميشه (بمثابة الذنب من الكلب) مقارنة بدور الإدارات الأمريكية! وثالثها، طرح موزع على درجات ـ على امتداد بندول المواقف والتحليلات بين هذين الطرحين النقيضين. وإزاء ذلك، يبرز التساؤل المزدوج: ما مناسبة هذا الحديث الآن؟ وأين تكمن «الحقيقة» أو على الأقل: الحقيقة كما يراها كاتب هذه السطور؟.

* * *

أما عن لماذا العودة الآن، لمسألة اللوبي الصهيوني/ الإسرائيلي، فلأن الجواب يكمن في دخول هذا الموضوع «عين العاصفة» قبل أقل من شهرين! ففي آذار/مارس المنصرم، عصفت بالمسرح الفكري/السياسي «تسونامي» أو «كاترينا» (!) وذلك بعد أن نشر أكاديميان أمريكيان بارزان دراستهما الموسومة: «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية للولايات المتحدة». وهذان البروفسوران هما: جون ميرشايمر، ستيفان والت. أما الأول فهو أستاذ معروف في«دائرة العلوم السياسية» المعروفة أيضا والتي هي جزء من «جامعة شيكاغو» الشهيرة! وكذلك الحال مع الباحث الثاني الأستاذ في «كلية كنيدي للدراسات الحكومية» الشهيرة في جامعة «هارفرد» العتيدة. وما كانت هذه العاصفة لتثور لولا الصفة المتميزة للباحثين، ولمؤسستيهما العلميتين. فمثل هذه الدراسة (بنصّها الحرفي) لو صدرت عن باحثين مغمورين يعملان في مواقع مغمورة لما كان هنالك زوبعة أو عاصفة! ومن ناحية ثانية، لو كانت الدراسة مطاطية اللغة والمضمون لكانت مرت ... بسلام! غير أن اللغة الواضحة للدراسة أسهمت في تسمية المضامين بأسمائها، فأثارت ما أثارته من غبار لم يهدأ بعد. ومن ناحية ثالثة، كان لردود الفعل العصبية حينا (حتى الجنون) والتحتانية أحيانا (حتى حدود المعاقبة والتآمر على الباحثين) والمحايدة على نحو تنصلي فادح (حتى حدود التخلي عن الباحثين من قبل قيادتي الجامعتين) هذه الوقائع كلها أدخلت الموضوع إدخالا مباشرا في «عين العاصفة» التي تبدو الآن وكأنها هدأت، لكنني أظن أنه مثلما كان للدراسة ما قبلها، فإن ما سيكون بعدها سيتراكم ويتفاعل ويسفر عن حالة جديدة ستترك بصماتها على جسد هذا الموضوع الحيوي ليس بحثيا/فكريا فحسب، وإنما سياسيا أيضا.

* * *

وإذ تتراكم ردود الفعل المكتوبة على شكل أبحاث ودراسات جديدة إما في معرض التعليق، أو التنديد، أو التأييد، مع مضامين دراسة ميرشايمر/والت، فإن أفضل ما طالعته شخصيا ورد في مقالة بليغة/موجزة للكاتب المخضرم. والمؤلف الموسوعي، البروفسور نعوم تشومسكي. وهذا الأخير له باع طويل في العديد من قضايا الشرق الأوسط، وكذلك في كل ما يتصل ببنية الأوضاع الداخلية الأمريكية وسياستها الخارجية. وإذ يبدأ كاتبنا بالشكل (وهو أمر هام بحد ذاته) فإنه يلاحظ أن الباحثين ميرشايمر/والت قد نشرا دراستهما في مجلة (London Review of Books) وليس في أي من المجلات الأمريكية البارزة) وهنا، يسجل تشومسكي بأن «المجلة» البريطانية المذكورة هي «مجال رحب» (أكثر رحابة من المجلات الأمريكية) «للنقاشات الحرة». بل هو يربط بين مكان النشر وقوى العزل والشطب والرقابة المتجسدة في سطوة «اللوبي الإسرائيلي» موضع البحث. ولقد مضى يقتبس عن أحد الكاتبين (ميرشايمر) شكواه لمجلة (The Jewish Journal) من أن دراسته (مع والت) قد رفض نشرها من قبل الجهة التي استكتبتهما، بحيث تعذر عليهما نشرها في أي من المجلات الأمريكية العلمية. بل أن تشومسكي أشار إلى ردود الفعل «الهستيرية التي صدرت ـ كما هو معتاد ـ عن داعمي عنف الدولة» الذين عمدوا إلى «تسخيف» كاتبي الدراسة طالما أنهما لم «ينضبطا» وفق إيقاع وطلبات تلك «القوة»! ثم يمضي تشومسكي ممتدحا شجاعة الكاتبين وقيمة دراستهما متوقعا أنها ستثير ضدهما «ما هو متوقع» أي الكثير من الأكاذيب والشجب والخداع والفبركة والتشهير!! ومع ذلك، لا يتباطأ تشومسكي في إعلان اختلافه مع الباحثين حين يقول أن أطروحتهما لم تكن، بالنسبة إليه، «مقنعة كثيرا»! فلماذا؟

* * *

بين قائل بأهمية وغلبة عامل «قوة اللوبي» الإسرائيلي، وقائل بأهمية وغلبة عامل «المصالح الاستراتيجية الاقتصادية لمجمعات القوة المحلية في التعاضد الحكم (القائم) بين الدول والشركات (الكبرى) في (الولايات المتحدة)» يقف تشومسكي على عكس الباحثين ـ مع العامل الثاني دون أي إنكار لأهمية عامل قوة اللوبي! وفي هذا النطاق، يرفض تشومسكي أطروحة الباحثين القائلة بأن السياسة الأمريكية خسرت بفضل مسايرتها أو خضوعها للوبي الإسرائيلي، بل هو يشرح كيف انتصرت لأنها جاءت حصيلة العامل الثاني المنفصل عن العامل الأول أعلاه. فالشركات الكبرى، وبخاصة النفطية، فازت بالعوائد وكذلك الدولة الأمريكية التي أطاحت بالدول القومية المستقلة في الشرق الأوسط (وخارجه). وكل ذلك قد تم بمعزل عن مساعدة اللوبي الإسرائيلي باستثناء حالات تناغم محددة وقعت في فترات محددة. بل أنه يسرد وقائع عن الكيفية التي تعارضت فيها مصالح الطرفين مما أدى إلى موقف أمريكي رادع بل مذل لإسرائيل (في موضوع الصين وتسليحها إسرائيليا) في العامين (2000) و (2005) في عهدين أمريكيين مختلفين: عهد الرئيس بيل كلنتون، وعهد الرئيس جورج بوش الثاني!

* * *

أما كاتب هذه السطور فينحاز، من حيث الجوهر، إلى أطروحة تشومسكي الأساسية. ومع ذلك، يرى أن ثمة أوقاتا ـ مثل الزمن الراهن ـ تصبح فيه يد «الشريك الأصغر» (في حالة مثل حالتنا مع إسرائيل والصهيونية وتحالفهما مع الصهيونية المتمسيحة ولا نقول المسيحية) أعلى من يد «الشريك الأكبر» أي الإدارة الأمريكية بكل ما تمثله من تحالفات. غير أن هذا الواقع المختلف هو واقع مؤقت سرعان ما يتعدل بغلبة إرادة الشريك الأكبر. وفي ظني أنه لن يمضي وقت طويل حتى تضيق الولايات المتحدة بهذا الوضع المؤقت ونتائجه فتعود إلى فرض إرادتها الأعلى خدمة لمصالحها لكن بتفهم واسع للمصالح الإسرائيلية، وطبعا وقطعا، دون أن يؤدي التعارض بينهما إلى كسر المصالح الإسرائيلية جوهريا ناهيك عن وقوفها ـ والعياذ بالله (!!!) ـ لصالح النظام الرسمي العربي و/أو النظام الرسمي المسلم!!!

* كاتب من فلسطين

المشهد المصري: استبداد واحتقان وأيام سوداء

ممدوح اسماعيل*

■ نظام الحكم فى مصر مصره على سياسة العصا للشعب المصرى ومع ذلك فمصر تشهد تسارعا في الأحداث السياسية وإذا كان عام 2005 هو عام ارتفاع الحرارة السياسية في مصر فان عام 2006 بشهوره الأربعة فقط التي مضت هو عام العنف والمصائب والاحتقان السياسي ولعل ابرز المصائب في عام 2006 والتي لن تمحى من ذاكرة المصريين هي حادثة غرق العبارة السلام 98 وعليها آلف وخمسمائة راكب وتهريب مالك العبارة من أوسع أبواب مصر من مطار القاهرة مما كشف قمة الفساد في مصر ليزداد فوران الغضب المكبوت في الشعب المصري ثم حدثت مصيبة انتشار مرض أنفلونزا الطيور وفشلت الحكومة في احتوائها ورغم ذلك فالمصريون بطبعهم شعب صبور فكم من مصيبة مرت بهم او عليهم وهم صابرون وقد تعودت كل الحكومات المتعاقبة منذ محمد علي على فعل ما بشاءون اعتمادا على صبر المصريين الحديدي ولكن يبدو في الأفق ان الحديد بدأ ينصهر فالحرارة الشديدة التي تموج بداخله اقتربت من القشرة الخارجية فحدث الشرخ الظاهر المعبر عنه بالاحتقان السياسي الذي ظهر في العام الماضي في شكل حركات سياسية ومظاهرات وجرائد صاخبة بصوتها المعارض العالي وتطور إلى معركة حقيقية في الانتخابات البرلمانية بين سدنة القهر وطلاب الحرية وأسفرت المعركة عن رغبة قوية للشعب المصري في التغيير وذلك عبر إسقاط رموز معروفة أنها من سدنة القهر ولكن كان أهم ملفت للانتباه هو ظهور صوت للقضاة ندد بالتزوير في الانتخابات والمطالبة باستقلال القضاء.

بدأ الصوت خافتا ثم تصاعد وارتفع حتى وصل إلى ذروته في عام 2006 عندما تمت إحالة قاضيين هما من شيوخ القضاء بدرجة نواب لرئيس محكمة النقض إلى مجلس تأديب فتشابكت موجات الغليان داخل الجسد المصري من أحزاب إلى حركات سياسية وجماعات إلى القضاة فظهرت تلك الحرارة المرتفعة في الجرائد المعارضة لتصل مصر إلى حالة احتقان سياسي كما يحلو للبعض تسمية تلك الحالة من الغليان التي تبحث عن مخرج ولكن مما ينبغي ذكره ان الحكومة المصرية تركت ذلك الغليان ليظهر بعضه على السطح الأمر الذي اعتبره البعض خشية من ان يقذف الغليان الداخلي بالغطاء وبالجميع والبعض يقول للتنفيس والاخر يقول انه استجابة شكلية للمطالب الأمريكية بالإصلاح السياسي ولكن كان تضامن جموع من الشعب مع القضاة في المشهد الذي بثته كل القنوات الفضائية ووسائل الإعلام في يوم جلسة إحالة القضاة للتأديب إعلانا عن حالة جديدة في المشهد المصري الذي حمل صورة أخرى غير المصائب والاحتقان الأ وهي صورة العنف الذي ضرب مدينة دهب السياحية يوم الرابع والعشرين من أبريل/نيسان وهو يوم كان يحتفل فيه بعض المصريين بعيد شم النسيم في دهب الذي واكب احتفالات مصر بعيد تحرير سيناء. هزت الانفجارات دهب وبدلا من ان يكون الجو ربيعا انقلب إلى عواصف وانفجارات ودماء هزت مصر وانطلقت التحليلات ممن يعرف وهم قليل وممن لا يعرف وهم كثير والحقيقة انه مع ادانة ما حدث من عنف في سيناء ألا إن الأمر يحتاج إلى تحليل حيث تعاني سيناء من احتقان نتيجة الإهمال الحكومي الذي وقف فقط عند إنشاء المدن القرى السياحية التي لا تتعدى منفعة السيناويين اهل المكان منها الا القليل اضافة لذلك فان قطاعاة من المجتمع السيناوي المحافظ ناقم على مشاهد العري والتفسخ الأخلاقي الذي تشهده تلك المدن السياحية (وذلك لايبرر العنف) لكن لماذا ظهر العنف في طابا ثم شرم الشيخ ودهب؟

لقد بدأ العنف في سيناء على يد تنظيم كان يصنف كتنظيم جهادي من خلال استهدافه الإسرائيليين ولكنه ما لبث ان تحول من العنف الجهادي إلى العنف الثأري الموتور من الدولة بسبب تجاوزات الامن الصارخة من اعتقالات بلغت ثلاثة آلاف معتقل واحتجاز النساء كرهائن وعدم احترامه بطريقة فجة لعادات وتقاليد آهل سيناء البدو المحافظين فتشاركت عوامل فكرية وثأرية مع الغضب الموتور الحانق لتشكل منظومة عنف خرجت علنا بحادثة دهب وقبلها شرم الشيخ ومن العجيب ان مصر فقدت الإطفائي السياسي الحكيم الذي يسكب الماء السياسي البارد على نار الغضب عند هؤلاء السيناويين وترك الأمر لسوط الأمن فقط الذي لا يميز.

ويبقى أن أشير إلى ان المشهد المصري بين العنف والاحتقان السياسي ختمته الدولة بمزيد من الاستبداد بفرض قانون الطوارىء لمدة سنتين أخريين لتصل مدته إلى سبعة وعشرين عام متواصلة ورغم ذلك القانون لم يمنع حادثة عنف واحدة وقد لفت انتباهي تعبير بعض الصحف المصرية حول تمديد العمل بقانون طوارئ لمدة سنتين أنه يوم أسود فقد مر امامي شريط الذاكرة المحمل بالايام السوداء في مصر منها على سبيل المثال لا الحصر فيوم ان تم تبديل شرع الله بالقوانين الوضعية في مصر كان يوما اسود ويوم ان رسخ الاحتلال البريطاني علمنة الحكم والسياسة والمثقفين في مصر كان يوما اسود ويوم ان حارب النظام المصري بعد 52 الإسلام والإسلاميين ورسخ العداء لهم حتى الآن كان يوما اسود ويوم خمسة حزيران/يونيو عام 1967 كان يوما اسود ويوم ذهاب السادات إلى إسرائيل كان يوما اسود ويوم توقيع معاهدة الاستسلام المسماة كامب دافيد كان يوما اسود وهنا وقفة فقد بدأت أيام سوداء لها شكل آخر من السواد فمنذ خمسة وعشرين عاما والشعب المصري حياته سواد ولم تعد ايام سوداء بل حياة كلها سواد أتوقف عند أبرز معالمها:

1ـ فتحت أبواب المعتقلات على مصراعيها للشباب المسلم ولم تغلق حتى الان حتى وصل عدد من شملهم الاعتقال حوالى نصف مليون شاب مسلم وتم بناء عشرة معتقلات جديدة لتحتوي الأعداد المتزايدة من المعتقلين

2ـ أما عن التعذيب في السجون فحدث ولاحرج عن كل ما يخطر ببالك وما لايخطر ببالك من أساليب التعذيب من ضرب بشتى الوسائل إلى تعذيب بالكهرباء إلى التعذيب الجنسي والاعتقالات والتعذيب ثابتة بتقرير المنظمات الحقوقية

3ـ التطبيع المفتوح مع العدو الصهيوني فقد دخل الاسرائيليون مصر بكل الطرق والوسائل تحت غطاء السياحة والاقتصاد